

سينما

إنهم ضحية الحرب الأهلية ووقودها المحتمل. شباب لفظتهم الأحزاب، لا يملكون ترف الحلم، اتخذوا من الشارع إقامتهم وقوتهم، وغاصوا في عالم المخدرات والبطالة. حيّ اللجا ليس سوى عينة من أزقة بيروت وزواربها، بسكانه وقصصه وتاريخه، لكنّ ديالا قشمر اتخذته بطلاً لـ «أرق». الشريط الوثائقي الذي جال المهرجانات، يطرح أخيراً في «متروبوليس أمبير صوفيك» بدءاً من الغد

ديالا قشمر تصادق ممشي حي اللجا

محمد همدر

تتشابه الأحياء الفقيرة والمهمشة في كل مكان في العالم. مهما تغيّرت ظروف إنشائها وأسبابها، تتخذ غالبيتها الشكل ذاته: تكّس بنيان، أزقة ضيقة، تهميش، بطالة متوارثة، نتائج غياب الدولة تتكدس، وكذلك ملفات وأسماء المطوبين.

الشارع بمغامراته وألغابه يجذب الجميع، يتحوّل سجنًا صغيراً يتنافس فيه الأقوياء على فرض الهيبة وإثبات الوجود، وكسر الروتين. صفة «زعران» تطلق اليوم على شباب الأزقة، أو شباب «الحفة» الذين يستندون إلى الحائط، ويتهمون بإثارة المشاكل أو يتجنبهم المرء عند مروره أمامهم... هؤلاء في بيروت القديمة كانوا موجودين أيضاً، لكن الظروف كانت مختلفة، وكانوا «قبضيات».

حين قرّرت تصوير فيلمها الوثائقي «أرق» (2013 - 110 د) الذي يطرح غداً في «متروبوليس أمبير صوفيل»، تخطت ديالا قشمر (1979) حاجز الرهبة والمسافة التي قد فصلها عن هؤلاء الشباب. قررت التعرف إليهم كأفراد، لا كمجموعات، أو «بُوط» كما يُطلق عليهم. قد لا يخيل لبعضهم أن هؤلاء وبعضهم مطلوب لدى الأجهزة الأمنية، وآخرين جربوا السجن، قد يساعدون امرأة في حمل أغراضها، يلبّون طالب خدمة، يأتون من خلفيات أخلاقية تجعلهم «يجلدون أنفسهم كل يوم» كما تصفهم ديالا، حين يدركون بأنهم أخطأوا.

كي تطرق بابهم للمرة الأولى، استعانت بصديقتها المحامي الذي صودف أنه يرافع عن بعض شبان حيّ اللجا. الباقي كان يفترض أن يكون سهلاً، لأن أحد الشبان أفصح بأنه بحاجة للكلام وإلى من يسمعه لأن لديه الكثير ليقوله.

حين زارته ديالا لاحقاً، عرفت أنه دخل السجن. تعرّفت إلى زملائه، وعرضت فكرتها، كانت لا تزال تعتقد أن موضوع تصوير حياة هؤلاء الشباب قد يكون سهلاً، لكن حين أتت مع فريق عملها المرة الأولى، تم طردها. التصوير سيتوقف أكثر من مرة، فهو ليس مستحباً في هذه الأماكن. لكن ليس هذا الراع الوحيد: خلال الجلسة التصوير الأولى التي يسودها الصمت بعدما وافق الشباب على إجرائها في شقة، اكتشفت ديالا عمق ما يريد قوله «نكل» و«تربّتي» وأصدقائهم،

من وثائقي «أرق»

واكتشفت ما وصفته جهلاً من جانبها في الموضوع التي أتت من أجل معالجته في شريطها. قررت إجراء دراسة اجتماعية

زارت الخندق العميق، وعين الرمانة ومناطق أخرى واستغرقتها البحث ستة ونصف

شاملة وبحث ميداني عن هذه الأحياء وهؤلاء الشبان، عن تاريخ هذه المناطق وأهلها وظاهرة الشبان والقبضيات والمخدرات.

زارت الخندق الغميق، وعين الرمانة ومناطق أخرى. استغرقتها البحث سنة ونصف السنة. تقول إن المادة المصوّرة كبيرة، لكنها اتخذت القرارات التي تخدم الفيلم، متخلية أيضاً عن اللقطات التي تظهر الحي الصغير بكامل زواياه وتفصيله وسطوحه.

قرّرت أن تلحق بالشبان وبخطواتهم القليلة العدد، ومجالستهم في المكان نفسه تقريباً لأيام عدة. حاولت على الأقل كسر الروتين من خلال تصوير حدث أو فعل جديد ولو أنه قد لا يكسر روتين حياة

الشباب، من دون جدوى. أبرزت تلك العلاقة بينها وبينهم وما سادها من مدّ وجزر. حاولت اكتشاف الواحد للآخر. ترى خلف استعراضهم القوة ضعفاً، ويظهرون لها أنها أصبحت واحداً منهم وأنها بحمايتهم. هذه العلاقة تفرض تعقيدات على العمل وعلى المخرج كإنسان. تقول ديالا إنها عملت على أسس أخلاقية السينما الوثائقية التي اضطرتها لإخفاء الكثير من الخصوصيات والقصص التي شاهدها. توضح لـ «الأخبار»: «في النهاية، دخلت بيوت هؤلاء الناس، وخصوصياتهم وهمومهم وقصصهم مع أولادهم».

رغم شهرته، لا يتعدى حيّ اللجا كونه عينة من أزقة بيروت وزواربها، بشكله وسكانه وقصصه وتاريخه الذي أسهمت في كتابته الحرب الأهلية والتهميش بفعل الاحتلال الإسرائيلي أو النزوح من القرى الجنوبية في سبيل حياة أفضل. تحيط هذه الأحياء ببيروت المحملة من كل الجهات، يتكاثر سكانها وتزيد بطالتها. تسدّ سماءها ناطحات السحاب الجديدة وتهدد وجودها خطط البنيان والمزيد من الهوة بين الغني والفقير.

ترى ديالا أن الفيلم ليس فقط عن الشبان الذين صورتهم، بل عن الأطفال الذين شاهدتهم في الحيّ ينتظرون كي يأخذوا مكانهم في الزاوية ذاتها في الشارع، من دون أن تهتم أي جهة بمستقبلهم أو تنتشلهم من المخدرات. منهم من يخرج وحده بفضل صفقة ما في حياته تعيده إلى الإحساس بالمسؤولية، ومنهم من يمضي سنوات في السجن، ومنهم من لا يستطيع أن يكمل الطريق كما حصل مع أحد الشبان الذين صوّرتهم قبل أن يفارق الحياة لاحقاً.



«حراس الوقت الضائم» على ناصية الحياة

بانة بيضون

المخرجة: يتناقشون في ما بينهم عن يقع اللوم في ما أصبحوا عليه، إلا أنّ أحدهم يصرخ منهيًا الجدل بما معناه: «نحن الذين دمرنا أنفسنا». نقطة قوة الشريط هي بورتريه «القبضيات» النمطي الذي تنجح المخرجة في تفكيكه وترتكز إليها في سردها أكثر منها اللغة السينمائية المتفاوتة في درجة ابتكارها. لكن ذلك قد يخضع أيضاً لظروف التصوير ومشقاته التي اعترضت المخرجة في هذه المنطقة. يبقى أنّ هناك جانباً إنسانياً، تنجح قشمر في تحييده وإبراز جماليته خارج الهوية الطائفية أو السياسية للمكان أو قاطنيه. أمر تستحق الثناء عليه، ويبرز كضرورة في السينما الوثائقية اللبنانية اليوم.

«أرق» بدءاً من الغد في «متروبوليس أمبير صوفيك» حتّى 27 أيار (مايو). عند 4:00 عصراً وال 7:00 وال 9:00 مساءً. للاستعلام: 01/204080

أو كيف مضت حياتهم حتى الآن؟ فعلى البقعة ذاتها من الرصيف، يجتمعون كل يوم في انتظار أن يحدث شيء ما أو ربما في انتظار الوقت نفسه، أو كما تصفهم المخرجة في العنوان البديل للفيلم بالإنكليزية بـ «حراس الوقت الضائم». الوقت أيضاً هو الأرق، ذلك الأرق الذي تحوّل إيماناً كما يفسر لها أحدهم سبب تورطه الدائم في المشاكل: «أنا بحب القلق». من خلال أسئلة المخرجة، يسقط تدريجاً قناع «القبضيات» المسيطر والمستقوي ليتبين لنا جانباً أكثر هشاشة. نلمس شعورهم الداخلي بالدونية، فهم ليسوا بغفلة عن نظرة المجتمع كما عندما تسألهم المخرجة أي نوع من الموسيقى يستمعون إليها، فيجيبها أحدهم: «يعني بالعربي المشبرح، منسمع نوري». وعن سؤالهم عن الحب، يقولون: «يعني مين يللي بدنا تحبنا، يا بدنا تهج، يا تروح سكتة قلبية». بدهشة أيضاً، نكتشف قدرتهم على التحليل الذاتي التي تقودهم إليه

قشمر، مفككة حتى صورة القبضيات عن نفسه. اللعبة الأساسية والمثيرة للاهتمام في الفيلم هي الصراع على السلطة بين قشمر والقبضيات. في البداية، يرفضون الانصياع لسلطتها، فكيف بمن لا يعترف حتى بسلطة القانون، أن يتقبل سلطة مخرج وبالأخص امرأة ضمن هذا المحيط الذكوري كما يقولون ذلك بمفرداتهم في الفيلم؟ لكن المخرجة تنجح في إدخالهم في لعبتها وتقودهم بسلاسة نحو مساحة البوح الذاتي مستغلة بشكل إيجابي توقعهم لأن يسمعوها ويرأوا. تستحيل عدسة الكاميرا نافذتهم إلى العالم الخارجي الذي يعيش فيه الأشخاص «الطبيعيون» بحسب تعبيرهم الذين لا يعدون أنفسهم بينهم.

هؤلاء الذي يعيشون في النهار ويعملون ثم يذهبون لشرب القهوة في أحد المقاهي ويجلسون متمسرين أمام حواسيبهم، كما يقول لها أحدهم ساعراً. أما كيف يمضي القبضيات أوقاتهم